تأليه الأشياء وتشييئ الأشخاص

الأنبا مكاريوس اسقف المنيا العام

تأليه الأشياء و تشييىء الأشخاص

للأنبا مكاريوس – الأسقف العام

جلسنا مع أبونا كيرلس البراموسي (الأنبا مكاريوس حاليا) ذات مساء في بيت الخلوة بعد العشاء المعتاد (فول البراموس المعجزة بحد ذاته) على انفراد وتحلقنا حوله كالعادة ... ففاجئنا بإسم هذا الكتاب الذي بهرنا وأدهشنا كثيرا – وكالعادة حاولت ثنيه عن كتابة مثل هذه الكتيبات لكثرتها ولإحتياج الكنيسة لمفسرين للكلمة بعمق مثله – فقال لي (تذكر اخوتك الذين لا يقرأون مثلك فإنه ينبغي أن تفعلوا هذه ولا تتركوا تلك) وتركنا بعض ففوجئت به ليلا في غرفتي معطيا إياي بيضة سرا قائلا : خذ هذه هدية مني ليك ولا تزعل ففرحت بها كثيرا واعتقدت أن الموضوع ترضية منه لي ولكنني فوجئت ثاني يوم أن الناس كلها حصل معها نفس الموقف فضحكنا كثيرا

أولاً : مقدمة عن تأليه الأشياء

أن تؤله شيئاً هو أن تبالغ فى الإهتمام به و الإعتماد عليه إلى حد التعبّد , و بذلك يستمد الشىء سلطانه من خضوع الإنسان له , و أن يعتبر الإنسان شيئاً مصدراً حيوياً لوجوده و تحقيق ذاته و يعلق عليها جميع آلامه بحيث لا يستطيع العيش بدونها , أما تشييىّء شخصاً فهو أن تنظر إليه نظرة سطحية ربما من خلال ما يمتلكه أو على أساس التركيب الخارجى له , دون اعتباره شخصاً حيّاً كاملاً عاقلاً , مما يؤدى إلى فقدان التواصل معه , و هذا هو الفرق بين الذات و الموضوع Object & Subject .

جميع المخلوقات عزيزة لدى الله , فهى من صنع يديه و هو يحبها " لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا." (أفسس 2 : 10) . و قد عبر عن ذلك فى سفر التكوين عندما كرر تعبير " وَرَاَى اللهُ ذَلِكَ انَّهُ حَسَنٌ. " (تك 1 : 4 , 12 , 18 , 20) غير أن الإنسان هو المخلوق المحبوب لدى الله , جاء كتتويج للكون بعد أن خلق له كل شىء ... جاء متربعاً على العرش , وريثاً شرعياً كملك ... و موكّلاً - بشكل عام - من قبل الله على كل شىء فوق الأرض حيث سلّطه الله على كل شىء (تك 1 : 28 – 30) و دفع إليه كل شىء و جعله نبياً و كاهناً للخليقة يرفع التسبيح عنها قدام الله , حتى لقد دُعى السيد المسيح فى المقابل بـــ " آدم الأخير " أو " آدم الجديد " " هَكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضاً: «صَارَ آدَمُ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ نَفْساً حَيَّةً وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحاً مُحْيِياً»." (كورنثوس الأولى 15 : 45) .

و على ذلك فإنه ليس من اللائق أن يجعل الإنسان أحد تلك المخلوقات أو العناصر التى وُهبت له " لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ. " (رومية 1 : 20) و هكذا تصبح للإنسان آلهة كثيرة من دون الله , و تستمد تلك الآلهة قوتها و سطوتها من خضوع الإنسان لها .

فالناس قد يعبدون حيوانات أو أشجار أو آلهة مصنوعة من الذهب أو من الحجارة أو إلهاً غير منظور أو بشراً قديساً أو زعيماً كالشيطان و قد يعبدون أسلافهم أو أوطانهم أو الحزب الذى ينتمون إليه [1] .

لقد وضع لنا الله هذه الأشياء لنستخدمها لا لتستخدمنا , و هناك فرق بين أن نتعامل برقى و وقار مع الأشياء و أن نُغالى فى هذا التقدير و التوقير إلى حد الإستعباد لها , مثل التأمل فى الطبيعة و تمجيد خالقها لا أن نعتبرها موجودة من ذاتها أو أنها تحمل مقوّمات الألوهية بسبب غموضها أو روعتها , لقد اعتبر القدماء كل الظواهر الطبيعية و غير الطبيعية آلهة بسبب عجزهم عن تفسير كنهها و أصلها مثل الشمس و القمر و المياه و الحيتان .... إلخ , و يرى فيها كذلك قوة خارقة مثل (البروق و الرعود) أو مصدراً حيوياً للحياة مثل (الشمس و القمر و البقر) .

و لكن البعض لهم " أنا " كبير الحجم دائم التغير و لكن بلا ذات ... بلا جوهر أو إحساس بالهويّة , و أزمة الهوية فى المجتمع الحديث ناتجة فى الحقيقة من أن الناس قد أصبحوا أدوات بلا ذوات , يستّمدون هويتهم فحسب من العمل فى مكان له إسم , و لكن حيث لا توجد ذات حقيقية يستحيل وجود هوية [2] .

? القبول بحقيقة أن لا شىء خارج الإنسان ذاته , و لا أحد آخر غير الإنسان ذاته يستطيع أن يعطى الحياة معنى , و إنما الشرط الواجب توفره لجعل الحياة مليئة نشيطة مكرسة للرعاية و المشاركة هو التجرد و الإسقلالية الخاصة . نبذ عشق الذات [3] .

---

[1] الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 143.
[2] الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 158 .
[3] الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 181 , 182 .

و قد أعطى ماركس مفهوماً للكينونة و التملك تلخصها عبارته "*بقدر ما تتضاءل كينونتك و تتضائل قدرتك على التعبير عن حياتك تتزايد ملكيتك و تتضخّم حياتك المستلبة , كل ما يأخذه الإقتصاد منك , من أسلوب حياتك و إنسانيتك , يرده إليك فى شكل ثروة و نقود* " [4]

1. تأليه الأشياء

" لَكِنْ لَنَا إِلَهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ وَنَحْنُ بِهِ. " (كورنثوس الأولى 8 : 6)

يشرح سليمان الحكيم بطريقة مشوقة كيف بدأت عبادة الأصنام , حيث يروى عن شخص مات ولده و كان يحبه كثيراً , فحزن لذلك أيما حزن , و لما لم يكن قادراً على فراقه و الحياة بدونه , فقد قرر من ثمّ أن يصنع له تمثالاً يضعه فى ساحة داره , فلمّا تمّ له ذلك صار حينئذ يضع فوقه الملابس التى كان يرتديها , و يضع كذلك قدام التمثال ألوان الطعام المختلفة التى كان يحبها , و فى كل صباح يقف أمامه طويلاً و يتحدث معه ثم يقبله باكياً قبل أن يتركه ليتجه إلى عمله , و راح جميع أفراد أسرته يقلدونه فى ذلك , فلما مات الرجل هو الآخر سار الأحفاد فى نفس الطقس ...

و هكذا تحول الخشب الذى صنع منه التمثال إلى إله تقدم له فريضة صباحية , و يعاتب سليمان الصناع الذين يستخدمون بقايا الأشجار التى يصنعون منها المحاريث أو السواقى , فى صنع التماثيل ثم يتفنّنون فى طلائه بالألوان , فإذا ما أرادوا تثبيته فى الحائط سمّروه بالمسامير , و فى هذا يسخر منهم إذ كيف لا يستطيع الإله الثبات من تلقاء نفسه [5] .

كما يشرح دانيال النبى فى أسلوب غاية فى الأسف و الطرافة معاً , كيف أن أهل بابل عبدوا الصنم الذى خدعهم به كهنة المعبد حيث أشاعوا أنه يلتهم كل يوم كميات خيالية من الخبز و اللحم

---

[4] الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 167 .
[5] راجع حكمة سليمان الإصحاح 15 .

و الخمر , غير أن دانيال النبى أثبت للملك كذب أدعائهم , إذ كشف للملك و الشعب معاً أن الكهنة كانوا يلتهمون هم هذه الكمية من الأطعمة مع عائلاتهم ليلاً (راجع تتمة سفر دانيال إصحاح 14) [6] .

2. تأليه المال

" لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ" (لوقا 16 : 13)

يبدو أنه لا توجد لذة – عند كثيرين – أكثر من لذة جمع المال !!
حيث يعطى ذلك شعوراً كاذباً بالطمأنينة و التميز عن الآخرين فيؤله الإنسان المال و من ثم يؤله نفسه بسبب المال ! و لكن ذلك لن يحقق له الشبع الحقيقى الذى ينشده , فإن الإنسان " بئر من الرغبات " , بمعنى أنه مهما ألقى فيه فإن مستوى سطح الماء لا يتغير داخل البئر " كُلُّ الأَنْهَارِ تَجْرِي إِلَى الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ لَيْسَ بِمَلآنَ. إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي جَرَتْ مِنْهُ الأَنْهَارُ إِلَى هُنَاكَ تَذْهَبُ رَاجِعَةً. " (جامعة 1 : 7) , إن اللذة الوقتية التى يجدها الإنسان فى مراقبة المال و هو يتكدس , تتلاشى سريعاً عند أول تجربة أو مرض أو خوف من المجهول !!

و يتنازل محب المال – فى سبيل هذا المال – عن الجهد و الوقت و الصحة و المبادىء و الخلق و الفضائل , و يتجاهل الإنجيل و يتجاهل الإنجيل و يتجاهل الله فيتحول المال من ثم إلى إله يتعبد له كل مساء عندما يقف قبل النوم مبهوراً بما فى خزانته فى ولع غريب و كأنه يقدم فريضة كل مساء !!

و لكن المال هو الوسيلة التى وهبنا الله إياها لتسهيل التعامل [7] , و به نعبر عن محبتنا للفقراء و المحزونين , فى حين أنه قد يتسبب فى فقدان الملكوت " لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَالِ أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ، الَّذِي إِذِ ابْتَغَاهُ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنِ الإِيمَانِ، وَطَعَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَوْجَاعٍ كَثِيرَةٍ. "

---

[6] كان أهل بابل يعبدون صنماً اسمه (بال) و نقرأ أن كهنة الهيكل كانوا يقدمون 40 كيلة من السميذ و 6 دمجانات من الخمر مدعين أن بال يلتهمها كل ليلة و لكن دانيال النبى كشف للملك و لأهل بابل خداعهم بأن نثر رماداً على أرضية المعبد بعد وضع الطعام ثم أغلق الباب و جعل الملك يختمه بخاتمه و فى الصباح فتح الملك و معه دانيال فوجدوا آثار عشرات الأقدام و لما تعجب الملك أخبره دانيال بأن كهنة المعبد و عائلاتهم هم الذين يلتهمون الطعام كل مساء من باب خلفى عند ذلك غضب الملك و قتل الكهنة و عائلاتهم و سمح لدانيال بأن يحطم الصنم . نقرأ كذلك سيرة القديس كيرلس الكبير عن التمثال الذى كان الناس يعبدونه فلمّا تحطم انطلقت منه الفئران فى كلّ اتجاه .

(تيموثاوس الأولى 6 : 10) إذن فالحديث هنا هو عن " **حب المال** " و ليس عن المال ذاته و فى هذا يقول القديس يوحنا ذهبى الفم " *إن المال ليس سيداً بطبيعته , و إنما يصبح إلهاً بسبب بؤس المنحنيين له , و هكذا أيضاً البطن قد تصبح إلهاً ليس بسبب تسلطها و إنما بسبب خضوع المستعبدين لها* " [8] .

و لنا مثال فى ذلك فى قصة بطرس البخيل الذى عمل كـــ (مرابى) و راح يكدس المال فى اهتمام بالغ , و فى ذات ليلة بينما كان عائداً من تحصيل أموال رمقه أحد الشحاذين و هو ممسك برغيف من الخبز , و راح الشحاذ يستعطف بطرس هذا عله يعطيه بعضاً من الخبز و لكن بطرس لعنه و طرده من خلفه و لكن الشحاذ تمادى فى الإلحاح فيما يشبه المطاردة – بسبب شدة جوعه – حتى إذا ما اقترب بطرس من منزله و هو مشغول فقط بالمال الذى سيضيفه إلى الخزانة فى حجرة نومه , أراد التخلص من إلحاح الفقير اللزج فألقى بقطعة من الخبز فى وجهه حيث ألتقطها الفقير و راح يلتهمها فى بؤس و مسكنة لا مزيد عليها و هو يدعو له بالخير و المكافأة .

و بعدما اطمأن بطرس على أكداس المال دخل فراشه لينام , و فى نومه رأى مائدة كبيرة معدة و حولها يجلس أناس يشبهون الرسل و القديسين , و فى عجرفته المعتادة سأل الملاك الواقف هناك عن مكانه فقاده إلى أحد الكراسى حيث وجد اسمه مكتوباً على قطعة من الخشب فجلس و كان قدامه طبقاً مغطى بأخر شأنه فى ذلك شأن جميع الجالسين , فلما حان وقت رفع الأطباق شاهد فى كل طبق خيرات عديدة بينما نظر إلى طبقه الخاص فوجد فيه كسرة خبز صغيرة لا غير , فأشاح بيده إلى الملاك متذمراً , أما الملاك فقال له : ألا تعرف هذه فقال لا , أجابه : دقق جيداً و عندئذ همس برنّة أسى و مرارة : نعم عرفتها الآن , لقد كانت تلك هى الكسرة التى ألقى بها فى وجه الفقير الليلة السابقة .

---

[7] كلمة (مال) تعنى ممتلكات أو ما يخص الشخص " ما للشخص " و قد كان نظام قبل اختراع العملة coins هو المقايضة مثل استبدال الخراف و الجمال و الدجاج و البيض و غيرها .

[8] تفسير متى 6 : 24

عند ذلك قام من نومه فزعاً و قذف بالغطاء بكل قوة قدمه و وقف و العرق يتصبب من جبينه ثم راح فى شجاعة يوزع جميع أمواله ثم يمزق جميع صكوك المديونين , و قال فى نفسه (إن ما أرسلته إلى السماء هو ما وجدته هناك عند ذهابى !) .

و قد أرانا السيد المسيح طريقاً أفضل لجمع المال و ضمان سلامته و زيادته حين قال " لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِي السَّمَاءِ حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ " (متى 6 : 19 - 20) هذا و قد وضعت الكنيسة – كعروس للمسيح تطيع رجلها فى كل شىء – هذا الفصل من الإنجيل فى الأسبوع الأول من الصوم الكبير و الذى هو بداية رحلة تنتهى بالقيامة مع المسيح حيث عدم الفساد .

3. تأليه البطن

" الَّذِينَ إِلَهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِمِ، الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الأَرْضِيَّاتِ."
(فيليبى 3 : 19)

الطعام هو الخير الذى وهبه الله للإنسان حتى يشكر الله لأجله من جهة [9] , و حتى يستطيع من جهة أخرى , و يسمى البسطاء الخبز بـــ (العيش) أو (القوت) غير أن البعض يولون الطعام اهتماماً كبيراً فيتفنّنون فى ألوانه و يلهثون وراء كل جديد (لاسيما النساء المولعات بذلك و الساعيات بدأب شديد خلف الكتب و البرامج فى هذا الإطار) و يتفقون ببذخ على تلك اللذة . حتى أنه فى بعض المناسبات لا يرضيهم كل ألوان الطعام فى مصر فيجلبون من الخارج طعاماً على طائرة خاصة , عن هؤلاء يقول أحد الأباء " *هؤلاء يكرمون صناعة الطباخين* " .

و لكننا نأكل لكى نعيش لا نعيش لكى نأكل .. و يجب ألا تتسلط علينا المعدة و يحذّر الآباء كثيراً من هذا الإهتمام و يسمّونه : البطنة .. الشره .. الحنجرة , يقول القديس جيروم " *إن المعدة ليست*

[9] قيل عن القديس أرسانيوس أنه كان يرسل فى كل موسم فاكهة (فى موعدها) , ليشترى بعضاً منها حتى يمجد الله على خلقته .

سيداً و لكنها تصير كذلك إذا استعبد لها أحد , و هكذا تصبح إلهاً " , يقول معلمنا بولس الرسول عن بعض المقاومين للحق " إِلَهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خِزْيِهِم " (فيليبى 3 : 19) و يوصى الآباء بأن يأخذ الإنسان من الطعام ما يكفى أوده و أن يهتم بالقيمة الغذائية للطعام أكثر من أشكاله و ألوانه , فإن التخمة تتسبب فى نتائج عكسية , يقول أحد الآباء : " *البطن الملآنة من الأطعمة هى بلد الهواجس و الخيالات* " و نقرأ عن الرومان أنهم كانوا مولعين بالولائم , حيث يستطيع الرومانى أن يشترك فى عدة ولائم فى الليلة الواحدة بعدد أن يتخلص فى كل مرة من الطعام الذى فى معدته استعداداً للوليمة التالية [10] و نقرأ كذلك عن والى عربى مات مختنقاً ذات ليلة بسبب الإفراط , بعدما ضغط الطعام على الحجاب الحاجز !! (مات من التخمة) .

أما أولئك الذين صار المسيح لهم الشبع الحقيقى فلا يعودوا ينشغلون بطعام أو شراب بل صار يكفيهم أقل القليل , يأخذونه بشكر و فرح , مقابل ذلك تحدث معلمنا بولس الرسول عن أناس قال عنهم " لأَنَّ مِثْلَ هَؤُلاَءِ لاَ يَخْدِمُونَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ بَلْ بُطُونَهُمْ " (رومية 16 : 18) و يقول القديس يوحنا الدرجى "*كن سيداً على معدتك قبل أن تسود هى عليك* " .

و بسبب إدراك الكنيسة لحقيقة حرب شهوة الطعام , فقد عشقت الصوم و قد جعلت أول آحاد الصوم هو أحد التجربة حيث حورب السيد المسيح من الشيطان و انتصر لنا , و من ثم تُعلمنا كيف ننتصر على شهوة الطعام بالتدرّب على الصوم بمعونة المسيح , كما يقول القديس أغسطينوس " *أعرف نفسك فى المسيح مجرباً تعرف نفسك فيه منتصراً* " و لكى ترفع الكنيسة نظرنا كذلك إلى الشبع الحقيقى وضعت معجزة إشباع الجموع ضمن قراءات الأحد الخامس من الشهر القبطى , حيث أن الأحد الخامس يرمز إلى بركة الشهر إذ ترمز معجزة إشباع الجموع إلى سر الإفخارستيا : هنا الشبع الحقيقى ! .

---

[10] عن طريق وضع ريشة عند البلعوم فيتقيأ الشخص الطعام .

4. تأليه المظهر

" الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ. " (فيليبى 3 : 21)

إن تأليه المظهر هو أن يصبح الشكل هو المحور الرئيسى الذى يدور الإنسان حوله بقوة , و أن يصبح هذا الشكل هو الصفة التى يقدم بها الشخص نفسه إلى المجتمع [11] , و يزداد هذا الإتجاه لدى الفتيات عنه لدى الشبان , حيث يتطلب ذلك المزيد من الجهد و الوقت بل و المال أيضاً حيث يحتل قسماً كبيراً من الوقت و الإهتمام , بما يفوق الإهتمام بالله و خلاص النفس , و العجيب أنه قد تقابل شخصاً وسيماً غنيّاً تظهر عليه بوضوح علامات الأرستقراطية فإذا ما بدأت حديثك معه : سريعاً ما تكتشف أنه يعانى خواء كبيراً و خراباً مدمراً داخله , و من هنا يقال أن تقييم الشخص يكون من كلامه (فكره) لا من مظهره , فالأذن أكثر قدرة على القياس من العين , يقول سقراط " *تكلم حتى أراك* " .

عندما يكون الإنسان خاوياً من الداخل فإن إهتمامه بالخارج يزداد , و كأنه يعوض بذلك نقصاً يؤرقه فى الداخل فيبالغ فى الإهتمام بالتركيب الخارجى , و لكنّ الإنسان من الممكن أن يحيا بلا أذن أو أنف (الشكل) بينما يستحيل أن يحيا بدون قلب أو كبد مثلاً (الداخل) " وَأَمَّا الْجَمِيلَةُ فِينَا فَلَيْسَ لَهَا احْتِيَاجٌ. لَكِنَّ اللهَ مَزَجَ الْجَسَدَ مُعْطِياً النَّاقِصَ كَرَامَةً أَفْضَلَ. " (كورنثوس الأولى 12 : 24) .

و يدخل فى تأليه المظهر تأليه الملابس أيضاً , و كما قلنا سابقاً فإن المظهر إذا كان إلهاً فإن الثياب قد تصبح مثل تلك التى كانوا يضعونها على التماثيل " وَلاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ، بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ. " (بطرس الأولى 3 : 3 , 4) [12] .

---

[11] يلاحظ ذلك فى بعض حديثى السن حين يثبتون التليفون المحمول فى وسطهم بشكل ملفت و كأنه هو الذى يقدّمهم إلى المجتمع !!. أو كأنّ الناس سيتعاملون مع موبيل و ليس إنسان .

[12] يقصد بضفر الشعر هنا ضفره كل خصلة صغيرة على حدة مما يستلزم ما يصل إلى يوم كامل.

و لكن لماذا نرى الكائنات البشرية المعاصرة مغرمة بالشراء و الإستهلاك بينما لا تربطهما بالأشياء التى تشتريها إلاّ رابطة ضعيفة واهية , و الإجابة تكمن فى افتقاد الشخصية الإستهلاكية أو التسويقية – كما سبق للإرتباطات الحميمية حيث ينسحب ذلك على الأشياء , ربما كان المشتروات تعطى لمشتريها نوعاً من الإعتبار و الراحة لا أكثر , أما الأشياء فى ذاتها فلا قيمة حقيقية لها , و يمكن الإستغناء عنها تماماً مثل ما يمكن الإستغناء عن الأصدقاء و الأحباء حيث لا توجد علاقات أكثر عمقاً تربط الشخص بأى منها [13] .

و يتوقف النجاح إلى حد كبير على كيفية اظهار الفرد " شخصيته " كيف يجعل من مجموع صفاته و شخصيته " صفقة " مقبولة , هل هو فى مجمله مرح ... مقنع ... مقتحم ... طموح ... يُعتمد عليه , و أكثر من ذلك " من أى وسط عائلى جاء " و إلى أى الأندية ينتسب ؟ [14] .....

و حتى تشبع الكنيسة شهوة التزين عند الإنسان دعت كل أولادها إلى ذلك و لكن بالزينة الحقيقية و التى هى الفضائل حيث تُذكر أولادها كل صباح فى صلاة باكر " أسألكم أَنَا الأَسِيرَ فِي الرَّبِّ، أَنْ تَسْلُكُوا ... بِكُلِّ تَوَاضُعٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَبِطُولِ أَنَاةٍ ..." (أفسس 4 : 1) و تقف النفس البشرية فى آخر كل يوم فى تحليل النوم كطفلة صغيرة أمام أبيها فى خجل بعدما اتسخت ثيابها بعد يوم حافل بالضعف و التهاون ناظرة إلى الأرض تطلب من أبيها أن يغفر لها و يُعيد إليها نقاوتها و بهاءها قائلة : " يارب جميع ما أخطأنا به إليك .... اصفح و اغفر لنا من أجل اسمك القدوس " , و نلاحظ فى صلاة نصف الليل درجات الزينة التى يطلبها المسيح :

I. ففى الخدمة الأولى يختار الرب المستعدات (اللابسات ثياب العُرس) .
II. و فى الخدمة الثانية يؤثر الزينة الداخلية (أى نقاوة القلب) حيث يغفر للخاطئة التى تقدمت إليه بقلب نقى .
III. أمّا فى الخدمة الثالثة فيُطالب بالزينة الدائمة " لتكن أحقائكم ممنطقة " .

لقد لبسنا المسيح بالمعموديّة و صرنا متسربلين بثوب بره فكيف نستبدل هذا الثوب بثوب العالم الفانى .. يقول معلمنا بولس الرسول " وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ، " (

13 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 159.
14 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 157.

كولوسى 3 : 10) و فى التاريخ الكنسى يوجد عشرات القديسين ممن يدعون (ابنفماتوفوروس) أى لابس الروح .

5. تأليه الجنس

" وَلَكِنَّ الْجَسَدَ لَيْسَ لِلزِّنَا بَلْ لِلرَّبِّ وَالرَّبُّ لِلْجَسَدِ." (كورنثوس الأولى 6 : 13)

عندما صنّف فرويد الغرائز فى أربعة عشر غريزة , جعل الجنس فى مقدمتها , و قد لوحظ منذ قديم الزمان أن الإنسان هرب إلى الجنس فى سعيه إلى لذة أسطورية ... إلى تحقيق اللانهائى فلمّا عجز عن تحقيق ذلك من خلال الجنس أرتد على أعقابه [15] يبحث عن لذة أخرى ربما فى المخدرات , و تقول الكاتبة جبيلى " *أحرق العالم الآلهة و هياكلها , و لكى يعوض عنها لجأ إلى الجنس !* " [16] و يرى البعض أن هناك ديناً فى الحياة المعاصرة أسمه " دين الجنس " حيث رفع الناس الجنس إلى صعيد الألوهية , فأصبح كما يقول ألفريد دوماس " **الصنم الجديد** " " وَلَكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ." (غلاطية 5 : 24) .

و يرى أفلاطون أن الإنسان قد ينظر إلى الأخر فى الجنس كأداة لبلوغ الألوهة (اللانّهائى), و فى اتجاه آخر قد يؤله الطرف الثانى , أو حسبما يرد فى التعبير الدارج يصبح "معبوده !" حسب التعبير الدارج " **حب عبادة** " و تقول الأديبة سيمون دى بوفوار أن هناك تأليه متبادل يحدث فى الحب الجسدى .

و لكن الجنس هو تعبير عن الحب الحقيقى الحميمى , كما ينظر إليه بإعتباره قدس أقداس الجسم الإنسانى , أن الزواج هو السعى إلى الله من خلال المخلوق , فعندما يتّحد اثنان بالله فى الزواج لا

15راجع قصة أمنون و ثامار (صموئيل الثانى 13) .
16كوستى بندلى : إله الإلحاد المعاصر.

يظهران بعد كشىء أرضى و إنما كصورة الله نفسه , فيتحقق الكيان الإنسانى من خلال الأتحاد بالأخر , و لكن الأنانية و محاولة التأله تعزله و تجعله وحيداً . و يقول بول أفدوكيموف " *إن الزواج يعيد تركيب الإثنين فى واحد أكثر جمالاً و روعة بيد الفنان الأعظم الروح القدس و عندئذ تنعدم الثنائية* " [17] و من ثم فإن خطايا الجنس تسمى خطايا العزلة .

هذا و قد ربطت الوثنية الإله بالجنس فأوجدت آلهة و إلهات للخصب مثل ديانا و أفروديت, و صورتّها فى رموز جنسية , مما أنشأ ما يسمى بـــ " الدعارة المقدسة " فى الهياكل حيث تمارس دروباً مختلفة مخجلة من الإنحراف و الفجور " وَلاَ سِيَّمَا الَّذِينَ يَذْهَبُونَ وَرَاءَ الْجَسَدِ فِي شَهْوَةِ النَّجَاسَةِ، وَيَسْتَهِينُونَ بِالسِّيَادَةِ. جَسُورُونَ، مُعْجِبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، لاَ يَرْتَعِبُونَ أَنْ يَفْتَرُوا عَلَى ذَوِي الأَمْجَادِ " (بطرس الثانية 2 : 10) .

6. تأليه المناصب و الشهرة

" كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟ " (يوحنا 5 : 44)

فى ذلك يتخلى الإنسان عن الدين ... عن الخلق ... عن المبادىء , و يرى فى المراكز و الشهرة الإله الذى يحقق له المجد و الرفعة و يهبه الراحة التى ينشدها و يجعله يتسلط على كل شىء و كل أحد فيصبح من ثم " إلهاً صغيراً " .

و يرى فى المنصب صورة المطلق ... صورة من له حق التصرف فى مقدّرات البشر [18] , صورة من يجب له الخضوع و الإكرام و يخشى جانبه , إنه نوع من الغرور الممقوت , فى حين أن المنصب مسئولية , يُطلب من المسئول البذل و العطاء , إذ أن الإله الحقيقى يعطى بسخاء و بمحبة

17بول أفدوكيموف هو لاهوتى أرثوذكسى روسى معاصر .
18عبّر عن ذلك الأديب اللبنانى: فرح أنطوان ... فى مسرحيّته "المتصرف فى العباد ."

لا حدود لها , و يصفح بكثير من التحنّن و لا يستخدم سلطانه فى الإستظهار على أولاده ... و يجدر بالذكر أن **الكرامة تهين من لا يستحقها !** . هكذا هرب آباؤنا من الكرامة و المجد الباطل .

لاحظ أن السيد المسيح عندما أراد أن يعد تلاميذه لتلك المسئولية الكبيرة سلمهم خدمة غسل الأرجل قائلاً " لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. "
(يوحنا 13 : 15) هكذا القديس أغسطينوس يردد فى أحاديثه عن مفهوم الرئاسة و السيادة قائلاً بنوع الصلاة " سادتى يارب عبيدك "

و فى حين أنك تستطيع أن تقف قدام الله حينما تريد و وقت ما تقرر , فإنه قد يصعب عليك مقابلة مسئول و التحدث إليه فى بساطة , هنا يظهر بكل وضوح أن الإله الحقيقى متسربل بينما من يتأله تضره الكبرياء و تهلكه " لأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ. "
(يوحنا 12 : 43) و نلاحظ أنه عندما أراد بعض الوثنيين إكرام القديسان بولس و برنابا رفضا أن يقبلا مجدا من الناس " فَأَتَى كَاهِنُ زَفْسَ الَّذِي كَانَ قُدَّامَ الْمَدِينَةِ بِثِيرَانٍ وَأَكَالِيلَ عِنْدَ الأَبْوَابِ مَعَ الْجُمُوعِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَ. فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولاَنِ بَرْنَابَا وَبُولُسُ مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا وَانْدَفَعَا إِلَى الْجَمْعِ صَارِخَيْنِ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ لِمَاذَا تَفْعَلُونَ هَذَا؟ نَحْنُ أَيْضاً بَشَرٌ تَحْتَ آلاَمٍ مِثْلُكُمْ نُبَشِّرُكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا مِنْ هَذِهِ الأَبَاطِيلِ إِلَى الإِلَهِ الْحَيِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا " (أعمال 14 : 13 - 15) .

7. تأليه المادة

" لأَنَّ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ هِيَ مِنْ أَجْلِكُمْ، لِكَيْ تَكُونَ النِّعْمَةُ وَهِيَ قَدْ كَثُرَتْ بِالأَكْثَرِينَ، تَزِيدُ الشُّكْرَ لِمَجْدِ اللهِ. " (كورنثوس الثانية 4 : 15)

لقد جردت المسيحية الكون المادى (المادة) من الصفات الإلهية التى نسبت إليه فمهدت بذلك السبيل للعلم الحديث حتى يخضعها و يشكلها و يستخدمها , و لكن الوجوديين ينظرون إلى المادة بإعتبارها أصل لكل شىء , و هناك نظرتان إلى المادة خارج نطاق المسيحية , أولهما نظرة وثنية

حيث يراها الماركسيون " **حيواناً إله** " [19] بينما يراها آخرون قوة آلية عمياء غاشمة , العالم الشهير برديابيف يقول " *إذا كان الإنسان نتاج البيئة و الطبيعة , و إذا لم يكن فيه أى عنصر يرفعه فوق الطبيعة و البيئة , فكيف جاءته القدرة الخلاقة للسيطرة على المادة , و إذا كان جزءاً من المادة فالخلق و الإبداع كيف جاءاه !!*" [20] .

و فى البلاد الغربية يؤلهون التكنولوجيا و كل ما هو جديد (الأجهزة ... السيارات ... المحمول ... المتعة الحسية) , و فى العصور الوسطى - عصور التطور - حاول الأوربيون التحلل من سلطان الكنيسة إلى الأختراعات و الفن و الموسيقى العامة (غير الكنيسة) و أصبح المجتمع مع الوقت مجتمعاً استهلاكياً يؤمن بالدولار.. بالبنك.. بالأجهزة .. بيديه .. بالميكروسكوب .. بنتائج المختبرات .. و تحول العلماء إلى آلهة .. (مثل محاولة إنتاج الأطفال فى المختبرات) و تحولت تكنولوجياتهم إلى آلهة صغيرة فرعية .. ينظر إليها فى عجب , مثل الكمبيوتر الآن و الذى قد يقضى شخص ما قدامه ساعات طويلة فى وله شديد .. (و لاسيما داخل عالم الإنترنت المتسع) .

و مما يدعو إلى الدهشة , أن الإنسان جعل من نفسه إلهاً , حين أصبح فى حوزته المقدرة التكنولوجية على " إعادة خلق " العالم مرة أخرة لتحلّ محل الخليقة الأولى التى خلقها .. لقد جعلنا من الإله إلهاً , و جعلنا من أنفسنا أشباه ألهة لأننا فى خدمة الآلات ... إن الكائنات البشرية إذ تصل إلى أقصى حالات العقم و العجز الحقيقى تتصوّر أنها وصلت إلى القدرة المطلقة بفضل صلتها بالعلم و التكنيك [21] .

عندما سئل أحد المفكرين عن الحملات التبشيرية غير المسيحية التى تحاول التأثير على الغربيين قال أن الغرب لن يقبل ديناً آخر لأنه عملياً ليس مسيحياً بالمعنى الصحيح و لكنه تكنولوجياً !! يعبد التكنولوجيا , و ربما يقبل العقائد الأخرى واحدة تلو واحدة عاماً بعد عام على سبيل الترف الفكرى فقط و الرغبة فى الجديد مثل تغيير السيارة و الموبيل و الكمبيوتر .

---

19 مثلما يقال عن الإنسان "حيواناً ناطقاً " أو يقال عن لوحة أنها تكاد أن تنطق .
20 كوستى بندلى: إله الإلحاد المعاصر.
21 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم .

فى طرقة أحد المصانع فى أوروبا و على الحائط كتب التحذير التالى " كن حذراً و تذكر أنه يمكن استبدالك بزر صغير ! " هذا التحذير كتب لعمال المصنع و يقصد به أنه بالإمكان إجراء أى تعديل على الجهاز فيوفر عشرات العمال و على العمال أنفسهم الإحتياط لحياتهم! غير أن العلماء كلما تعمقوا فى دراساتهم و اختباراتهم تأكدوا بالأكثر من وجود علة وراء هذا الكون .. إن الإكتشافات و الإختراعات ما هى إلاّ إكتشاف فقط لصفات المادة التى خلقها الله و أن ما يبهرهم الآن ما هو إلا نتاج تفاعل و حسن استخدام للعقل البشرى [22] و الذى هو بدوره هبة مجانية من الله , مع العناصر و التى هى أيضاً عطية منه .

إن الشبع الحقيقى الذى يهبه الله للإنسان يغنيه عن السعى خلف آلهة كاذبة , و يكتفى من الطعام و الشراب و الملابس و المال ما يقوم بأوده فقط , و عندما يعود الإنسان إلى نفسه و يدرك إلى أى منحدر إنساق فيه : يثور على تلك الآلهة , فيحطم أصنامها . إن الرهبان الذين أولوا ظهورهم للعالم .. كانوا قد رأوا فيه صنماً كبيراً يتعبد له الكثيرون , يقول أحد القديسين عن العالم " *العالم هو تجربة العالم .. العالم هو تلك الزانية التى تكثر من زينتها حتى تكثر من عشاقها* " [23] . " لاَ تُحِبُّوا الْعَالَمَ وَلاَ الأَشْيَاءَ الَّتِي فِي الْعَالَمِ. إِنْ أَحَبَّ أَحَدٌ الْعَالَمَ فَلَيْسَتْ فِيهِ مَحَبَّةُ الآبِ. " (يوحنا الأولى 2 : 15) و هذا هو مرد الكاثوليكون الذى تُصر عليه الكنيسة فى كل مرة كمنهج يومى .

الأمر يحتاج إلى تغيير أساسى فى الشخصية الإنسانية , من النمط السائد " نمط التملك " إلى " نمط الكينونة " . و من أجل خلق مجتمع جديد يجب أن تتميز الشخصية بالآتى :

- نبذ حب التملك بكل أشكاله لكى يحقق الإنسان كينونته تحقيقاً كاملاً .
- الحضور الكامل حيث يتواجد الإنسان و يكون .
- الإحساس بالأمان و تكامل الشخصية و الثقة القائمة على الإيمان بكينونته .

و بحاجته إلى الإنتماء و الشغف و الحب و التكافل مع العالم المحيط به , لا لشهوة التملك و الإستحواذ و احتواء العالم و من ثم التحول إلى عبد مقتنياته [24] .

---

22 جاء فى إحدى المجلات الأمريكية أنه لو أراد العلماء صنع جهاز يوازى عقل الإنسان , لإحتاجوا إلى أجهزة لا تستوعبها إلاّ ناطحة سحاب , و تحتاج إلى تيار كهربائى قدر ما تحتاجه ولاية كاملة من الولايات المتحدة , و قيل أيضاً أن ما استخدم حتى الآن فى التكنولوجيا لا يتعدّى ثلث العقل البشرى !! .

23 للعالم تعريفان فى الكتاب المقدس : الناس Poul و العالم kocuoc فنلاحظ أن تعبير : هكذا أحب الله العالم قصد بالعالم فيه الناس (رومى) بينما تعبير : لا تحبوا العالم و لا الأشياء التى فى العالم قصد بالعالم فيه (كوزموس) تماماً مثل الفرق بين Home و House حيث يعنى الأول الأسرة (سكان البيت) بينما يعنى الآخر المبنى ذاته .

24 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم .

8. تأليه الإنسان

" لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ. " (متى 4 : 10)

ظن بعض قدماء الملوك أنهم من سلالة الآلهة مثل الفراعنة و الآشوريين و البابليون و الفرس و غيرهم , فقد أقنع الكهنة و السحرة الإسكندر الأكبر أنه من سلالة الإله المصرى آمون (مما جعله يولى مصر اهتماماً خاصا) و قد انتقل وهْم السحرة و الكهنة لملوكهم إلى أولئك الملوك حيث أوهموا رعاياهم بأنهم آلهة , و من ثم يجب لهم السجود , و نما هذا الشعور لدى الطرفين عندما وجد الملك نفسه و إذا بيده حياة أو موت رعاياه ! فالله الذى يميت و يحيى ! أن الحكم الديمقراطى (الشعبى) فإنه ينزع من الملك – كشخص – مثل هذا الإمتياز الذى يشعره بالتألّه [25] .

و قد صدّق بعض الملوك أنفسهم , و كان الجنود فى زمن الرومان يقفون أمام أيقونة الإمبراطور يطلقون البخور و يتمتمون بكلمات تعبدية و هم يهتفون قائلين كيريوس سيزاروس أى الرب هو القيصر [26] , و يحتمل أن يكون التمثال الذى نصبه نبوخذ نصر فى حقل دورا فى بابل تمثالاً له , حيث طلب من رعاياه عند سماعهم أصوات الطبول و المزمار و الموسيقى الحضور للسجود قدام التمثال , و كان رفض السجود لتمثال الملك أو عدم التعبد له يعد إنكار للإلوهيته مما يستوجب القتل إذ يعتبر ذلك إلحاداً !!

و لكن الملك أو الوالى هو شخص مرتب من قبل الله , مؤتمن على رعية الله يبذل نفسه عنها فيما يصلح شأنها و فى القتال يتقدم صفوف المحاربين مثل صغار الجنود دفاعاً عن حريتها , إن

---

25 و قد مرّ وقت حكم فيه الكهنة مصر , و لبثوا يحكمونها زماناً عرف لدى المؤرخين بزمن الآلهة و أنصاف الآلهة , قدّره مانيتون بـ 1985 سنة للآلهة و 858 سنة لأنصاف الآلهة , إلى أن وحّدها الملك المصرى الشهير مينا .

26كانت إحدى الإتهامات الموجهة من الرومان للمسيحيين هى أنهم يهتفون فى عباداتهم كيريوس خريستوس (الرب هو المسيح) و ليس كيريوس سيزاروس (الرب هو القيصر) .

القيادة ليست كرامة بقدر ما هى مسئوليةو جراح , فهو يحمل عبء شعبه و آلامهم و أنينهم (يئن بهم) .

كذلك فقد يتحول الراعى أو الخادم إلى " **إله** " أو " **نصف إله** " تجب له الطاعة و يقدم له الولاء , فينتفخ حتى يهلك , و سمّى أحد الآباء مثل أولئك القادة **المتألهين** : "***سراق لاهوت***"
بمعنى أنهم ينسبون بعضاً من صفات الله إلى أنفسهم , و يستبقون مجد الله لأنفسهم , و لكنّ " الرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. " (يوحنا 10 : 11) و قد الله نبوخذ نصر بسبب تألّهه و شموخ نفسه حيث هبط من رتبة الإنسان إلى رتبة الحيوان , فنبت له الشعر و أكل العشب مثلهم حتّى اتّضع قدّام الله فردّه إلى مكانته (دانيال 4 : 28 - 37) و كذلك عوقب هيرودس أغريباس " فَفِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ لَبِسَ هِيرُودُسُ الْحُلَّةَ الْمُلُوكِيَّةَ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ وَجَعَلَ يُخَاطِبُهُمْ. فَصَرَخَ الشَّعْبُ: «هَذَا صَوْتُ إِلَهٍ لاَ صَوْتُ إِنْسَانٍ!» "
(أعمال 12 : 21 - 23) .

و لكى تحمى الكنيسة رعاتها من الوقوع فى هذه الزلة وضعت فى آخر تحليل الخدام هذا التعبير " ... و من فم حقارتى " , و فى قداس اللقان يقوم أكبر الكهنة بغسل أرجل الجميع . ثم جعلت من ممارسة سر الإعتراف ضرورة لا يُعفى منها أحد مهما كانت رتبته فى الكنيسة , حتى تؤكد أنه لا يوجد إنسان كامل أو إله آخر سوى الثالوث القدوس .

ثانياً : مقدمة عن تشييىء الأشخاص

خلق الله الإنسان حراً مريداً عاقلاً , و بالتجسد انفتح الله على الإنسان دون أن يلغى فرادته حسب تعبير أوليفيه كليمنت المفكر الفرنسى [27] و قدّس حريته و إرادته , و وهبه من صفاته و جعله وارثاً , فكيف نحقره نحن .

إن تشييىء الأشخاص يعنى النظر إلى الشخص بإعتباره شيئاً ... شيئاً من المال أو القوة البدنية أو من خلال القوة البدنية أو من خلال بعض ما يملكه , حيث أصبح الإنسان يُسعّر " فى عالم البزنس " بقدر ما يمتلك من خبرة عمليّة أو شهادات علميّة ! أو يسعّر فى عالم الرياضة , حين يشترى أحد النوادى لاعباً بعدة ملايين من الدولارات , أو أن تشترى دولة أحد العلماء كذلك بعشرات الملايين [28] , أو بمعنى آخر أن يتحوّل الإنسان إلى ما يسمّى بـــ كائن رقمى ! [29] , و هكذا يمكن النظر إلى الفتاة بإعتبارها جسداً و إلى الأب بإعتباره مصدراً للمال و الإبن بإعتباره شيئاً تملكه الأم , أو التعامل بشكل عام مع شخص ما بإعتباره **كتلة مهملة** .

حيث تسمى هذه الظاهرة " الشخصية التسويقية " لأنها تقوم على ممارسة الشخص لذاته كسلعة , و لقيمته كقيمة تبادلية , لا " كقيمة إنتفاعية " حيث يصبح الكائن سلعة فى " سوق الشخصيات " , و لا تختلف معايير التقييم فى " سوق الشخصيات " عن نظيرتها فى سوق السلع , فى واحدة تُعرض السلع للبيع و فى الأخرى تعرض الشخصيات , و فى الحالتين قيمة المعروض هى قيمته التبادلية [30] .

و لما كان النجاح يتوقف إلى حد كبير على كيفية بيع الإنسان شخصيته , فإن الإنسان يمارس ذاته كسلعة , أو بالأحرى كالبائع و السلعة معروضة للبيع معاً , و هكذا لا يصبح اهتمام الإنسان يدور حول حياته و سعادته و إنما يصبح كل همه أن يباع و أن يشترى , و أن يكون مطلوباً فى سوق

---

27 الأرثوذكسى و عالم اليوم: ترجمة القس أثناسيوس اسحق .

28 مثلما حدث فى روسيا عقب تفكك الإتحاد السوفيتيى , حين أعلنت الكثير من الدول عن رغبتها فى " شراء " العلماء النوويين الذين فيها مما أثار المخاوف لدى القوى العظمى فى العالم .

29 و لعلنا نلاحظ الآن كيف أن الشباب أصبحوا يميّزون بعضهم بعضاً من خلال السيارة أو النظارة أو الموبيل !!.

30 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 156

الشخصيات , لم يعد لصاحبها " أنا Ego " يتمسك بها و يمتلكها و لا يغيّرها , و إنما هو يغير هذا " الأنا " باستمرار وفقاً للقاعدة " أنا أكون كما تريدنى أن أكون ! " [31] .

و لقد عاش كثير من الناس ككائنات عاملة , لا ككائنات بشرية , و توقف نمو جهودهم الإنسانى , و إذ يلد هؤلاء اطفالاً فإن الذرية ينقصها عنصر هام من عناصر النمو و التطور الإنسانى , و إذ يقع الإنسان تحت وطأة مزيد من الإنشغال , فإنه يزداد استسلاماً لمزيد من الحاجةإلى الترفيه المصطنع [32] .

لقد نظر الله إلى الحيوانات و الطيور بل و الحشرات و الزروع نظرة مقدسة , فهيأ لها الطعام و كساها بأبهى الحلل مما يفوق ما إرتداه سليمان فى كل مجده (متى 6 : 26 - 30) و عن الثيران يوصى الله " لاَ تَكُمَّ ثَوْراً دَارِساً" (كورنثوس الأولى 9 : 9 و تيموثاوس الأولى 5 : 18) و هكذا يجب على الفلاح ألاّ ينظر إلى الثور بإعتباره قوة بدنية فقط و إنّما كنفس تتألم و تفرح و تشتهى !! .

إن تشييىء الأشخاص هو النتيجة الطبيعية لتأليه الأشياء !!

1. تشييىء العبيد

" أَيُّهَا السَّادَةُ، قَدِّمُوا لِلْعَبِيدِ الْعَدْلَ وَالْمُسَاوَاةَ، عَالِمِينَ انَّ لَكُمْ انْتُمْ ايْضاً سَيِّداً فِي السَّمَاوَاتِ. " (كولوسى 4 : 1)

كان العالم القديم يسمح بإقتناء العبيد , أى تسخير الإنسان لإنسان مثله لخدمته , فتضع على عاتق العبد أثقال راحة سيده , و قد أتاح القانون لمالك العبد أن يعاقبه عقوبة جسدية تصل إلى جدع الأنف أو الذن أو البتر , بل قد تصل العقوبة إلى القتل فى حالة هروب العبد من سيده , و كان الالسيد يمتلك العبد بموجب صك يسمى " صك العبودية " و تتغنى الكنيسة المفتداة بدم المسيح بأنه " لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ شَهْوَةَ الْجَسَدِ، وَشَهْوَةَ الْعُيُونِ، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَةِ، لَيْسَ مِنَ الآبِ بَلْ مِنَ الْعَالَمِ.

---

31 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 157
32 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم ص / 171

" (يوحنا الأولى 2 : 16) و عندما يسرق العبد سيده يصبح من حق الأخير كيه بالنار , حيث يظهر ذلك على جبهته كوصمة عار فتلتصق به التهمة حياته بحيث لا تمحى أبداً [33] .

و قد استخدم العبيد فى حمل الأشياء و الأثقال بل و السادة أنفسهم بمحفاتهم ! , و صار العبيد يمثلون جانباً من ثروة و ممتلكات السيد , فتحسب الثروة بعدد رؤوس الماشية و الحقول و العبيد و الإماء , و عندما طالب معلمنا بولس الرسول بالمساواة بين العبيد و السادة فى المسيح يسوع [34] , ثار الرومان ولاة و سادة , معتبرين ذلك دعوة واضحة لتحؤيؤ العبيد و الذين بلغ عددهم فى ذلك الوقت ستين مليونا منتشرين فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية , و عاد ليوضح أن الحرية تكمن فى طاعة العبد و ترفقّ السيّد " أيها السادة ترفقوا بالعبيد. " و للعبيد " أيها العبيد أطيعوا سادتكم فى الرب. " راجع (أفسس 6 : 5 – 9 , كولوسى 3 : 22 , تيطس 2 : 9) .

2. النازية و تشييىء الأشخاص

" وَأَنْتُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ، افْعَلُوا لَهُمْ هذِهِ الأُمُورَ، تَارِكِينَ التَّهْدِيدَ، عَالِمِينَ أَنَّ سَيِّدَكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً فِي السَّمَاوَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مُحَابَاةٌ. " (افسس 6 : 9)

سعى أدولف هتلر إلى إيجاد ما يسمى بالجنس الممتاز أو " سوبر مان " فنظر بكثير من التحقير إلى بقية شعوب العالم لاسيما الفقراء و السود الأفارقة و كذلك المرضى و المعاقين ذهنياً و حركياً , و رأى فيهم مخلوقات تعيش عالة على البقية الممتازة إذ يستنفذون ما يحق للأذكياء و الممتازين , و من ثم فلا داعى لتعليمهم أو علاجهم أو تطويرهم [35] .

و لقد خص اليهود بكراهية لا مثيل لها فإضطهدهم و أشبع لذة مجنونة لديه بقتلهم , متفنناً فى ذلك إلى حد يكاد لا يصدق , ثم استخدم جثثهم كوقود يصهر به المعادن , و يقدر الإسرائيليون عدد

33كان السادة يستخدمون فى ذلك كلاشيه حديد عليه ثلاثة حروف بارزة اختصار (أنا إنسان لص) ثم يسخنونها لدرجة الإحمرار و من ثم يطبعونه على جبهة العبد السارق .

34فى المسيح يسوع يجب أن تختفى فوارق السن و المال و الثقافة و العرق .

35 عمد هتلر فى سبيل ذلك إلى تنظيم تزاوج بين نوعيات خاصة من الفتيات نظيرها من الشبان بحيث يتم تربية الأولاد بمعرفة الدولة و على نفقتها وفق معايير محددة, كما قام بحرق جميع المعاقين ذهنياً أو حركياً .

الذين أبادهم النازى بحوالى ستة ملايين يهودى . كذلك فقد أستخدم أسراه فى التجارب الفسيولوجية و التشريحية , و أطلق أيدى العلماء و الأطباء فى إستخدام أولئك الأسرى أحياء أو أموات فى تجاربهم مثلهم فى ذلك مثل الفئران [36] .

و لكن حياة الإنسان قيمة لا يمكن التعويض عنها و ليس من حق إنسان - مهما كان – أن يسلب كائن آخر حياته , و فى مجلس العموم البريطانى أثيرت قضية شائكة مفادها أن شخصاً كان قد توقفّ قلبه لبعض الوقت و قد أستطاع الأطباء المهرة أن يوصلوه ببعض الأجهزة الدقيقة حيث أبقوا على حياته , و مازال يخضع لهذه الأجهزة منذ سنوات و لكنه فى غيبوبة تامة , فإذا ما نزعت تلك الأجهزة مات فى الحال .. و قد ثار جدل حول إمكانية عمل ذلك من عدمه , العجيبي أن مجلس العموم أقر أنّه ليس من حق إنسان أن يسلب آخر حياته , فأبقوا على المريض .

من هنا يعمل أنصار البيئة و الطبيعة , إذ ينادون بحق كل مخلوق فى الحياة بما فى ذلك الحيوان و النبات , و مع أن الله قد سلّط الإنسان على جميع الحيوانات و الطيور و النبات و دفعها إليه طعاماً , إلاّ أن أتباعهم يرفضون أكل اللحوم , و يقولون أن أكلها يعد اشتراكاً – و لو بشكل غير مباشر – فى قتلها , و قد رفض أحدهم شراء صورة مطعّمة بسن الفيل! و يقولون أيضاً أن ملايين الدولارات لا يمكنها إرجاع الحياة لنملة قتلها شخص .. أى أن نفسها تساوى أكثر من تلك الملايين . و ربما كان فى ذلك مبالغة , إلاّ أنها تعدّ بحق نظرة سامية إلى ما حولنا من كائنات حية .

3. تشييىء الأولاد

هذه قضية أسرية يعانى منها العديد من الأولاد و البنات , عندما يستخدمهم الآباء و الأمهات فى شكل إمتلاك , فيرى الأب فى إبنه إمتداداً له , غير أنه يحبّ أن يكون الإمتداد صورياً (على نفس صورته) و الأم التى ترى نفسها فى ابنتها فتمعن فى جعلها نسخة منها أو تعوض فيها ما كانت تودّه فى نفسها (مثل الزينة) , و يبدأ الأب فى إملاء إرادته على إبنه و يحمله على فعل ما

36 و قد أستخدم بعض الحكام أسراهم كدروع بشرية مثلما حدث فى حرب الخليج الأخيرة .

لا يرغب فيه , و لذلك فإن الصدام الأكبر فيما بين الآباء و الأبناء يحدث فى مرحلة المراهقة , حين يخرج الشاب عن الطوق الأسرى العتيق فيتحررّ من تلك القيود التى ارتبطت فى ذهنه بالطفولة , فى هذه الفترة يعانى كل من الأب و الإبن معاناة نفسية شديدة , فالإبن يبدأ فى الإنفتاح على عوالم جديدة و آفاقٍ أكثر إتساعاً يحقق فيها ذاته بعيداً عن الرقابة المنزلية و بعيداً عن النصح التقليدى الذى سأمه و الذى يشعر معه بأنه مازال قزماً .

عند ذلك يشعر الأب و الأم أنهما بصدد فقد ابنهما كشىء يمتلكانه أو أيقونة تزين حياتهما , عندئذ يفكران فى وضع القيود على تحركاته و يبدون ملاحظات متلاحقة حول طعامه و ملابسه و أصدقائه و شعره , فيضيق الإبن بذلك و يتملص من مطاردتهم و يجد نفسه بين الأقران فهو بينهم رجل كامل بينما يشعر بالطفولة و التقزّم بين والديه (و اللذين يتعمّدان أن يشعراه بذلك بين آن و آخر) و يظهر مثل ذلك الإمتلاك فى العوائق الكثيرة التى تضعها الأم فى طريق زواج إبنها , شعوراً منها بأن هناك من سيستحوذ على ابنها , و قد تكره زوجته تلقائياً و دون مبرر واضح ..

و لكن الأولاد هم المستقبل و بهم تتجدّد الحياة , و علينا أن نتخلى عن أنانيتنا فى أمتلاكهم , و نحب لهم الخير و الرقى و الإنطلاق حتى و لو كان فى ذلك فقدان وقتى أو مباشر لهم , فنحن أمناء عليهم فقط حتى نعدّهم للحياة لكنيسة الله و المجتمع ... , هكذا يجب أن تكون محبتنا لأولادنا محبة إطلاق لا إمتلاك ... يقول جبران خليل جبران : " *إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم ... بكم يأتون إلى العالم و لكن ليس منكم ... و مع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم ... فى طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم و لكن نفوسهم لا تقطن فى مساكنكم ... إن لكم أن تجاهدوا لكى تصيروا مثلهم و لكنكم عبث تحاولون أن تجعلوهم مثلكم ... لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء و لا تلذ لها الإقامة فى منزل الأمس... أنتم الأقواس و أولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم* " [37] .

---

37 المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران المعربة ص 90 , 91

4. تشييىء الآباء و الأمهات

يحدث هذا عندما ينظر الأولاد إلى آبائهم و أمهاتهم بإعتبارهم مصدراً للمال أو أداة لتحقيق الرغبات , فى حين أن للأبوة معنى و قيمة تفوق ذلك بكثير بل و تختلف عنه أيّما اختلاف , تماماً مثل الفرق بين (البنك و الأب) أو (الشغالة و الأم) هناك فرق بين مشاعر الأبوة الغنية بالحب و النصح و التوجيه و الشعور بالمسئولية , و بين أن يحصل الإبن على المال و الحماية من مصدر آخر (مثل أن تتبنّى الحكومة طفلاً يتيماً توفر له جميع ما يحتاجه) أو مثل الفرق بين عطف الأم و روعة الأمومة بحبها الصادق و تضحيتها التى لا مثيل لها , و بين أن يكلف الإنسان شخصاً بتوفير ما يحتاج إليه نظير مبلغ من المال كأجر له .

و لكن يجب الإنتباه جيداً إلى أن بعض الآباء و الأمهات يتحولون بالفعل إلى " آلات لجمع المال " و ذلك من خلال انهماكهم فى العمل لتوفير مستوى معيشى أفضل لأولادهم , فى سباق محموم وسط مجتمع استهلاكى متسلّط . و لكن تحوّل الأب إلى شىء من شأنه أن يؤثر بشكل فعال على دوره الطبيعى فى تربية الأولاد و إعدادهم للمجتمع و الكنيسة مما لا يستطيع المال تحقيقه و لا يمكن تداركه بعد ذلك حين يكبر الأولاد , كما أنه لم يوجد و لم يسمح بما يسمّى " مهنة أب " أو " مهنة أمّ " .

و قد رفع الله من قيمة الأب و الأم عندما شبّه علاقته بنا بعلاقتة الأم بأولادها "هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هَؤُلاَءِ يَنْسِينَ وَأَنَا لاَ أَنْسَاكِ."
(أشعياء 49 : 15) الأم التى تمثل الحنان و البذل أقصى درجات البذل .. الأم التى قد يسخرها الإبن فى أعمال مختلفة فتقوم بها و هى راضية سعيدة بأن تحقق له حياة مريحة و تنظر إليه بفرح

و فخر و هو ينمو قليلاً , أو أن يحاصر الإبن أباه نفسياً و هو يمارس ضغطاً قاسياً من أجل الحصول على المال أو تحقيق بعض المطالب .

5. تشييىء المخدومين

عندما تتحول الكنيسة إلى مجموعات أو " شلل " فإن القائد أو الخادم الذى يستخدم المخدومين كمناصرين أو أبواق له يتعلق بهم و يمتلكهم , يصبحون أسرى آرائه و أفكاره, و هناك فرق بين أن يستوعب الخادم مخدوميه و يحتضنهم و يحتويهم , و أن يستقطبهم فالإستقطاب فيه امتهان للآخر و تحقير له , بينما الإستيعاب هو انفتاح القلب على الآخر , و عدم التضيّق به , و الإتساع لتقبل حتى المغايرين و المعارضين , أم أن محاولة الإستيعاب تتم للمتميزين بينما يكون التضيّق مع الضعفاء !! ,و إن كان الخادم سوف يختار من يخدمهم من الأذكياء و الأرستقراطيين فالآخرون من يخدمهم و أن افتقد الأغنياء فمن يهتّم بالفقراء .

الخادم المتّضع هو من ينمى مواهب مخدوميه و يدعهم يكبرون و يتميزون من خلاله , بينما الخادم المتأله يريد كل المخدومين اقزاماً ليظل هو الكبير الوحيد , لقد تبنى آباء كثيرون أولادهم بالحب و التشجيع و قدموا لهم كل العون حتى نمت مواهبهم و حتى فاقوهم فى الفضيلة و كأن لسان حال كل أب يقول : ينبغى أن هذا يزيد و إنى أنا أنقص , و نلاحظ فى سير الآباء السواح أن نسبة كبيرة منهم قد خرجوا إلى السياحة بإرشاد و تدبير من آبائهم المقيمين فى المجتمع فتفوق الأبناء على آبائهم و كتب الآباء سير أولادهم السواح فى فخر و فرح و كثير من الإتضاع [38] لقد فاق الأنبا موسى معلمه الأنبا إيسوذورس القس و بينما طبقت شهرة الأنبا موسى الآفاق نجد أن المعروف عن القديس إيسوذورس هو أقل القليل حتى أنه ليس له عيد نياحة أو تكريس كنيسة بل يحتفل به مع الأنبا موسى .

38 مثل الأنبا اسحق رئيس دير القلمون الذى كتب سير أولاده السواح مثل الأنبا ميصائيل و الأنبا غاليون

6. تشييىء الزوجة و الزوج

خلق الله المرأة لتكون معيناً للرجل , و يقول التقليد اليهودى أن الله لم يخلقها من رأس أدم لئلا تسود عليه و لم يخلقها من قدميه لئلا يسود عليها و لكنه خلقها فى ضلع من جنبه لتكون مساوية له , تعينه فى الحياة و تساعده فى خلاص نفسه و من خلال الجسد الواحد يصلان إلى الفكر الواحد و القلب الواحد لتحقيق الهدف الواحد الأسمى ألا و هو الإتحاد بالله .

و لكن أن ينظر الفتى إلى الفتاة بإعتبارها مجرد جسد فهذا تحقير و تشييء لها .. فهى كيان إنسانى كامل , شخص مات المسيح عنه و هو مرشح للأبدية .. أو ينظر إليها بإعتبارها شيئاً من الملابس أو الجمال الجسدى , فالمشاعر الراقية و الخصال الجيدة و القامة الروحية هى ما يجب أن يعّول عليه , أو أن ينظر الزوج إلى زوجته بإعتبارها وسيلة للذته فقط و أداة لتحقيق متطلباته الأخرى من طعام و عناية بأولاده و غيرها , فهذا تشييء للزوجة .

مثلما كان بعض القدماء ينظرون إلى المرأة نظرتهم إلى شىء يمتلكونه و قد كان من السهل التخلص من المرأة بنفس سهولة الحصول على غيرهم ببضع رؤوس من الأغنام أو الإبل ! , و لربما سمح ناموس موسى بالطلاق حماية للمرأة , حيث كان الرجل يرى فى موتها المبرر الواضح و المنطقى لزواجه بأخرى فيتخلص منها فى الصباح و ليأتى بغيرها فى المساء و لم تكن المرأة تدخل فى العدد و التعداد اليهودى , مثلما فى ذلك مثل الأطفال أيضاً [39] كما لم يكن يسوغ لها الظهور فى المحافل العامة أو دور القضاء , كذلك لم يكن من اللائق أن تسلم على زوجها أو تتحدث معه إذا تقابلت معه فى الطريق!! و يعود معلمنا بولس الرسول ليؤكد أنه فى

39 نلاحظ شىء مثل ذلك فى معجزة إشباع الجموع حين يقول القديس متّى " وَالآكِلُونَ كَانُوا أَرْبَعَةَ آلاَفِ رَجُلٍ مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ. " (متى 14 : 12) و راجع أيضاً (متى 15 : 38) .

المسيح يسوع ليس رجلاً و لا امرأة ... و يوصى النساء بطاعة أزواجهن كما يوصى الرجال بمحبة نسائهم " لأَ أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، " (أفسس 5 : 22) .

كذلك عندما تنظر المرأة إلى زوجها بإعتباره البنك الذى تسحب منه ما تحتاجه من مال , أو الحارس الذى أختارته ليضمن لها سلامتها فى البيت و الشارع , أو الشخص الذى يكمل الصورة الإجتماعية لها , تقدمة إلى المجتمعات و كأنها تتباهى بذوقها الرفيع و اختيارها الحسن [40] , فإنها بذلك تشيّىء زوجها .

إن الزواج الناجح يقوم على البذل , و عندما يوافق الشاب على الإرتباط بفتاة فهو فى الواقع يقر أنه سيقدم نفسه عنها و يحيا حياته جاهداً فى سبيل إسعادها و العمل على راحتها .. و كذلك الأمر بالنسبة للفتاة متى وافقت , و هكذا يسعى كل منهما فيما يسعد الآخر لا فيما ما يسعده هو .. فيؤثر كل شخص الأخر على نفسه .

7. تشييىء المجرم و الخاطىء و المريض

" بَلْ كُنَّا مُتَرَفِّقِينَ فِي وَسَطِكُمْ كَمَا تُرَبِّي الْمُرْضِعَةُ أَوْلاَدَهَا، "
(تسالونيكى الأولى 2 : 7)

تعلم المسيحية كيف نحب المجرم و نحارب الإجرام .. نحب المريض و نقاوم المرض .. نحب الخاطىء و نهرب من الخطية , فالإنسان فى السجن ليس مجرد " نمرة " فى الدفاتر أو عدد فى العنابر , فمن المحتمل أن يخرج السجين يوماً ما ليحيا فى صلاح بعد أن تثقل بخبرة كبيرة .

إن النظر إلى المجرم بإعتباره شخصاً غير مرغوب فيه أو نفاية المجتمع و قد ألقى بها فى غياهب السجن : ينمى داخله روحاً عدائية و حقداً على المجتمع و رغبة فى الإنتقام فيخرج أكثر

40لاسيّما تلك الأماكن التى يبدو فيها الأزواج و الزوجات و كأنهم فى معرض بشرى !!و ينطبق ذلك أيضاً على تحكّم الزوجة بأزوجها (بزوجها) فيما يرتدى و فيما يجب أن يكون عليه وزنه , حتى يليق بها كزوج بين الأخريات !! .

إجراماً يعيث فساداً فى المجتمع و يمثل خطورة عليه فى حين أنه لو نظر إليه كإنسان مسكين قادته بعض الظروف إلى ذلك ثم محاولة مساعدته حتى يسترد ثقته فى الناس و فى نفسه , فإن بإستطاعته أن يصبح عضواً فعالاً فى المجتمع و هو ما يسمى اصطلاحاً فى هذا الإطار بـــ " التأهيل " .

و كذلك الخاطىء التى شوهته الخطية علينا بتشجيعه و حقنه بالرجاء و الثقة و الحب الصادق فيعود إلى رتبته و ننزعه من فك المفترس .. إن الخاطىء الغارق فى بحار الخطايا يحتاج إلى نصح مخلص و طول أناة , يقول القديس لوقا عن الشاب الغنى الذى جاء يطلب كلمة منفعة من السيد المسيح " فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ " (مرقس 10 : 21) فلا يوجد إنسان شرير بطبيعته .. و لم نسمع عن إنسان ولد و فى يده مطواة أو مسدس ! و لكن الشر أمر دخيل عليه , يمكن التخلص منه من خلال عمل النعمة تذكيه قوة الإرادة لدى الشخص و احتضان الراعى له .. و سوف ندرك أن الخاطىء هو شخص تقى و قديس و أن الخطية هى عملية دخيلة عليه بل قد يعود القاتل إلى بيته بعد جريمته و هو يحمل بعض الهدايا للأطفال و فى منزله يهدهدهم و يغنى لهم ! أن فى داخله يقبع إنسان طيب و حنون .

الطبيب التقى أيضاً يجب أن ينظر إلى المريض بإعتباره إنساناً داهمه أن يعتبره حالة !!, كذلك يجب النظر إلى جثث المتوفيين فى المشرحة بكل تقدير و وقار بل و تأمل , لا أن ينظر إليها بكثير من الإحتقار أو العبث بها كما يفعل بعض طلبة الطب المستهترون , فهى ليست كتلة من اللحم و لكنها تمثل شخصاً كاملاً , و لذلك فقد اعتاد الناس إكرام موتاهم بكثير من الحرص و ينظرون إلى عظامهم نظر تقدير و عاطفة راقية , و من هنا فنحن لا ننظر إلى المريض أو الجسد الميت باعتباره كتلة من اللحم , إننا نحب المريض و نقاوم المرض ... نحب الميت و نرثى لموته .

8. تشييىء الملك لرعيته و جنوده

الثابت أن الملك هو خادم رعيته .. اختبر ليقدم نفسه عنها , مثل الزوج الذى يجعل من نفسه خادماً لزوجته رعيته و لذلك فإنه ليس من المقبول أن يستخدم الملك شعبه فى تحقيق مأربه السلطوية و المالية .... و غيرها .

سئل شريف عربى لماذا لم تقبل الولاية ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يكون ذلك الشخص الذى يطيح برأس إنسان دون مبرر أو يهب آلاف الدينارات لآخر دون مبرر أيضاً ! و سمعنا عن الحكان الذين كانوا يتسلون بتعذيب و قتل بعض أفراد الشعب [41] . و يحكى عن الحاكم بأمر الله أنه حكم على شخص بالموت و لكن وزيره أسر إليه فى أذنه بأن هذا الشخص هو الحداد الذى يصنع حدوات الفرس الخاص بالملك فإن مات فلن يجد مثله و من ثم سوف يتعثر الفرس فى سيره .. و هنا سأل على الفور عن الشخص الواقف بجوار الحداد فقيل له أن القفاص (صانع الأقفاص) فأجاب أننا لسنا فى احتياج إلى قفّاص فليقتل عوضاً عنه فقتلوه ! .

و لكن السلطة العليا هى للشعب و هو ما يسمى بالديمقراطية (ديمو = شعب , أقراط = حكم) , فى هذا النظام يفوض الشعب شخصاً يلتمس فيه مواصفات الحاكم العادل الطموح , و من ثم يتعهد المرشح بتلبية هذه الرغبات حتى فى الإطار الكنسى يعتبر المجمع المقدس هو السلطة العليا فى الكنيسة , مثل مجلس الشعب فى مصر و مجلس العموم فى بريطانيا و مجلس الشيوخ فى أمريكا .

و مما هو جدير بالذكر هنا أن الحسّ الروحى و اللاهوتى للشعب أعلى منه بكثير لدى الراعى و كذلك نبض الشارع فى دولة ما يعكس الرغبات الحقيقية و المعيار الحقيقى لمدى نجاح القائد .

من هنا فإنه بإمكان شخص واحد أن يحسن إلى شعبه و يسهم فى رقيهم و سلامهم و سلامتهم فى حين قد يتسبّب شخص آخر فى جلب المتاعب لشعبه و ربما هلاكهم [42] .

41يرد فى التاريخ أن يوحنا هركانوس أمر بصلب 800 شخص و بينما كانوا يتجرّعون الآلام الرهيبة كان هو و نساؤه يتسلون بمشاهدتهم على تلك الحال .

42 يظهر ذلك جلياً فى أحداث الحرب العالمية الثانية و دور هتلر فيها.

فكثيراً ما ضحّى بعض القادة بضباطهم و جنودهم فى سبيل تحقيق مآرب شخصية و ليس قوميّة , فتحققت رغباتهم فوق أشلاء مئات الألوف من الجنود و برك واسعة من الدماء و ملايين الدولارات التى تبددت و من هنا فإن المسئول الحقيقى عن كل نقطة دم أريقت و كل طفل تيتّم و كلّ أم تثكّلت و كلّ زوجة ترمّلت , فهو صاحب قرار الحرب و هو اليد الفعلية التى تضغط على زناد السلاح و هو الذى يجعل من الجنود مجرد ذخائر و يتعامل معهم كقطع من الحديد الحى .

و فى القضاء يتساوى الفقير المعدم مع المليونير , و الملك مع أحقر العبيد , و الجاهل مع الفيلسوف , و المريض المشرف على الموت مع صاحب أعلى لياقة بدنية , و يحكم بالقتل على من يقتل أىّ من هؤلاء مهما كانت شخصية القاتل أو القتيل , بل و فى بعض المجتمعات يرفعون من قد الحيوان إلى نفس مقدار الإهتمام بالإنسان و تسنّ لذلك القوانين الصارمة [43] .

9. تشييىء المادة

مع أن المسيحية جرّدت الكون (المادة) من الصفات الإلهية – كما سبق القول فإنها قدّست المادة و لم تر فيها شراً و لا نجاسة , و علّمت بأن طريقة استخدام المادة هى التى تجعلها نافعة أو ضارة , فبالجسد قدسّ الله المادة فلم يعد هناك شىء نجس بل أصبح كل شىء طاهر للطاهرين و سلّم لنا الله ذلك من خلال التصريح الآتى لمعلمنا بطرس الرسول " فَرَأَى السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَإِنَاءً نَازِلاً عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَلاَّةٍ عَلَى الأَرْضِ .وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ .وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: «قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ .»فَقَالَ بُطْرُسُ: «كَلاَّ يَا رَبُّ لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئاً دَنِساً أَوْ نَجِساً .»فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضاً صَوْتٌ ثَانِيَةً: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ .»!وَكَانَ هَذَا عَلَى ثَلاَثِ مَرَّاتٍ ثُمَّ ارْتَفَعَ الإِنَاءُ أَيْضاً إِلَى السَّمَاءِ. " (أعمال 10 : 11 - 16) راجع أيضاً (أعمال 11 : 5 – 10) .

43حكمت محكمة فى إحدى الدول الأوروبية على سيدة بدفع غرامة مالية كبيرة لأنها قامت بصبغ شعر قطتها ليتناسب مع لون الفراء الذى ترتديه, حيث كانت تضعها حول رقبتها أثناء قيادتها السيارة.

لقد تضررت الأرض (المادة) بسقوط الإنسان (ملعونة الأرض بسببك) و ظلت هكذا حتى اتحد اللاهوت بالناسوت فى تجسد المسيح و عندئذ رفع عنها اللعنة و أعطاها قُدسية , هذا و يظهر تقديس المادة فى عدة أشكال :

التقديس الكونى : حيث تم ذلك بتجسد المسيح و سيره على الأرض و تلامسه مع كل شىء, و من ثم أصبح الطعام مُقدساً لما يتلى عليه من صلوات و المسكن كذلك عندما ينال " تبريك المنازل " بل ممكن للإنسان أن يجعل من مخدعه أو حجرته أقدس مكان .. بل كل ما تمتد إليه أيدينا يتقدس بعلامة الصليب المُحيية , كذلك يجب الإنتباه إلى أن الأيقونة ليست مجرد لوحة فى الكنيسة و لكنها قطعة مُقدسة حية ... و كذلك المذبح لم يعد مجرد بضعة أحجار مرصوصة و لكنه أصبح قطعة حية .. و من هنا تصلى أيضاً الكنيسة على الثمار و العشب و النهر و الأمطار لتقديسها لخدمة الإنسان .

كذلك فإن حضور الله فى الأماكن العديدة يُقدسها و من ثم تصبح أيضاً مواضع يرتادها القديسون و نصلى : " إذا ما وقفنا فى هيكلك المقدس نُحسب إننا واقفين فى السماء " كذلك فقد حول آباء البرية الجبال الموحشة مأوى الوحوش و اللصوص , إلى أماكن مُقدسة مازلنا نتنسّم فيها عبق صلواتهم و جهاداتهم . و بينما نظر اليهود إلى الهيكل نظرة مادية بحتة من جمال الحجارة إلى نقوشه الذهبية و الفضية و اتساعه و فخامته , نظر إليه السيد المسيح بإعتباره بيت الصلاة , و أنه يقدّس القربان و الذهب راجع (متى 24 : 2 , لوقا 21 : 5) غير أن أعلى درجات تقديس المادة , هى درجة السر : **حيث يحل الروح القدس على مادة السرّ فتصير هى ذاتها مُغَيرة و مُقَدِسة بفعل الروح القدس** , و تصبح لها القدرة على تجديد الإنسان و استعادة صورة الله فيه و مثاله مثلما يحدث فى مياه المعمودية و زيت الميرون و الخبز و الخمر .

و هكذا تتقدس المادة فى الليتورجيا من خلال اشتراكها فى طقس القداس الإلهى بإعتبارها جزءاً هاماً فى الإعلان عن حب الله و عمله الفدائى , حيث تتمثل المادة – إلى جوار الخبز و الخمر – فى البخور و الفحم و الشورية و اللفائف و الزيت و غيرها , كل هذه الأدوات تعلن عن حب الله و عن الخلاص , فهى جزء لا يتجزأ من الإفخارستيا التى تحياها الكنيسة فى السر الكنسى و التى ستظل نحياها حتى المجىء الثانى حيث ننظر الله كما هو و ليس كما فى مرآة .

حتى أجساد الموتى و التى كان كلّ من يلمسها يتنجّس , صرنا نكرمها فى العهد الجديد مثلما نصنع مع أجساد القديسين إذ نقبّلها و نتبارك بها , غير أن هناك فرقاً بين تقديس المادة و عبادتها أو تأليهها , فالتقديس هو التخلى عن فكرة أن المادة بها شر أو نجاسة , و أمّا التأليه فهو النظر إليها بإعتبارها أصل كل شىء , أو بعبارة أخرى التمادى (المبالغة) فى تقديسها .

لقد أوصى الله بنى إسرائيل بالترفق بالأرض (التربة) و عدم ارهاقها , و ذلك بأن تزرع ستة أعوام بينما يعتبر العام السابع راحة لها " سِتَّ سِنِينَ تَزْرَعُ ارْضَكَ وَتَجْمَعُ غَلَّتَهَا. " (خروج 23 : 10) فلما حملهم الطمع على كسر الوصية و راحوا يزرعون الأرض بشكل متصل عاقبهم الله بأن أدخلهم السبى حيث استمروا فيه بعدد السنين التى ارهقوا فيها الأرض " حِينَئِذٍ تَسْتَوْفِي الارْضُ سُبُوتَهَا كُلَّ ايَّامِ وَحْشَتِهَا وَانْتُمْ فِي ارْضِ اعْدَائِكُمْ. حِينَئِذٍ تَسْبِتُ الارْضُ وَتَسْتَوْفِي سُبُوتَهَا. " (لاويين 26 : 34) [44] .

حتى البهائم اهتم بها الله و أوصى شعبه من أجلها , فمنعهم من الحرث على ثور و حمار معاً حتى لا يرهق الحمار إذ تكون القوتين غير متكافئتين ... كما منعهم من تكميم الثور الدارس " لاَ تَكُمَّ ثَوْراً دَارِساً " (كورنثوس الأولى 9 : 9 , تيموثاوس الأولى 5 : 18) بل سمح لليهودى بأن يحل حماره يوم السبت ليسقيه .. و ان ينقذ خروفه إذا سقط فى حفرة يوم السبت , راجع (متى 12 : 11 و لوقا 14 : 5 و 13 : 15) و اهتم بالزروع و العشب و نبات الحقل و البسها أفخر الألوان .. راجع (متى 6 : 29 و لوقا 12 : 27) .

يجب أن تقوم علاقة الإنسان بالطبيعة على التعاون لا الإستغلال [45] .

أخيراً

44 مكث بنى إسرائيل فى أرض الموعد 490 سنة , فإذا قسمت على سبع سنوات كان عدد السنين التى كسروا فيها الوصية 70 سنة هى بالتمام التى قضوها فى السبى ؟ !! . و دور هتلر فيها .

45 الإنسان بين الجوهر و المظهر أريك فروم

علينا أن نتعامل مع الآخر بإعتباره إنساناً له حق الحياة .. مثله فى ذلك مثل جميع الناس.. مات المسيح عنه مثلما مات عن الكل غأى إنسان يكتسب أهميته القصوى من موت المسيح لأجله .. من هنا فقد تفاجأ يوم الدينونة بتفوق المحتقرين و المرزولين و المهمّشين بينما يتراجع المشاهير و المتجبرون و السادة

كذلك علينا أن نستخدم ما جعل الله بين أيدينا دون أن يتسلّط علينا أو يفوق اهتمامنا به الحد اللائق .. فإن ما يشغل الإنسان عن الله و عن أبديته (مستقرّه الآتى مع الله) هذا يعدّ إلهاً , كما يجب ألا نحتقر شيئاً ما أو نزدرى بشىء ما , و إنّما نحيا فى تناغم مع الله و الكون و الآخرين , فقد جمع الإنسان بين ما هو مادى و ما هو روحى حيث خُلق من أديم الأرض ثم أضفى الله عليه الكثير من صفاته مثل القداسة و الخلود و الحكمة , يقول القديس كيرلس الكبير "*قد صار كلّ ما هو خاص بالمسيح ملكاً مشتركاً لعموم الطبيعة البشرية* " .

و يمكننا أن نعتبر أن السبب الرئيسى و المشترك بين تأليه الأشياء و تشييء الأشخاص هو **إنحصار الإنسان فى ذاته و تأليهها و عبادتها** , حيث يصبح هدفه تأليه ذاته من خلال تسخير كل الوسائل و الأشياء لتحقيق هذا الغرض و تصبح هذه الأشياء (المال – الجنس – المظهر ... إلخ) بمثابة مادة الإلوهة التى بها تزاد ألوهيته هو , و هكذا يؤله تلك الأشياء و هى فى حقيقتها زائلة .

كما أن الإنسان المنحصر فى ذاته لا ينفتح على الآخرين كأشخاص , لأن العلاقة السوية تقوم على الحوار و الأخذ العطاء , غير أن الأنانى لا يعرف العطاء و إنما تتزايد لديه الرغبة فى الأخذ و الإمتلاك , و بالتالى فهو ينظر إلى الآخر باعتباره مصدراً للعطاء و تلبية رغباته , و من هنا فهو لا يتقبل الآخر كشخص , و هكذا يبتر البعد الإنسانى فى الآخرين ...

إن الكنيسة هى شخص واحد ينمو فى جميع الإتجاهات و ليست تراكم أفراد !

و يمكننا أن نلخّص ما سبق فى أربعة نقاط :

1. احترام الإنسان (لأنه مخلوق على صورة الله و افتدى بدمه ...) .
2. عدم تأليه الإنسان (لأنه مخلوق يعطى المجد لله و ينسب له كل الخير) .
3. عدم احتقار المادة (أى تقديس المادة : لأن الله بتجسده قدّس كل شىء) .
4. عدم تأليه المادة (لأنها مخلوقة لخدمة الإنسان و ليست من تلقاء ذاتها) .